رسالة
في تنزيه
اللّه سبحانه وتعالى

محمد عبد الله رجو

رسالةٌ في تنزيه اللّه

سبحانه وتعالى

محمد عبد الله رجو

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد للّه المبدئ المعيد، الفعَّال لما يريد، ذي العرش المجيد، والبطش الشديد، الهادي صفوةَ العبيد إلى المنهج الرشيد، والمسلك السديد، المنعِم عليهم ـ بعد شهادة التوحيد ـ بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد، السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى صلى اللّه عليه وسلم واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرَّمين بالتأييد والتسديد، المتجلي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، المعرِّف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له، فَرْدٌ لا مثيل له، صَمَدٌ لا ضِدَّ له، منفرد لا نِدَّ له، وأنه واحد قديم لا أول له، أزليٌّ لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبديٌّ لا نهاية له، قيُّوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يُقضَى عليه بالانقضاء والانفصال، بتصرُّم الآبادِ وانقراض الآجال، بل ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ [الحديد: ٣].

وأنه تبارك وتعالى ليس بجسم مصوَّر، ولا جوهر محدود مقدَّر، وأنه لا يماثل الأجسام، لا في التقدير ولا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر، ولا تحِلُّه الجواهر، ولا بعَرَض، ولا تحِلُّه الأعراض، بل لا يماثل موجوداً، ولا يماثله موجود، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ولا هو مثل شيء. وأنه لا يحده المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات.

وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده، استواء منزَّهاً عن المماسَّة والاستقرار، والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته. وهو فوق العرش والسماء، وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى، فوقيَّة لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء، كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثرى، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى. وهو مع ذلك قريب من كل موجـــود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَـــهِيد﴾ [ســـبأ: ٤٧]، إذ لا يماثل قربه قربَ الأجسام، كما لا تماثل ذاته ذاتَ الأجسام، وأنه لا يحلُّ في شيء، ولا يحلُّ فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدَّس عن أن يحدَّه زمان، بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان. وأنه بائن عن خلقه بصفاته، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه ذاته، وأنه مقـــدَّس عن التغير والانتقال، لا تحله الحوادث، ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال في نعوت جلاله منزهاً عن الزوال، وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال. وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول، مرئي الذات بالأبصار، نعمة منه ولطفاً بـــالأبرار في دار القرار، وإتماماً منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم. (إحياء علوم الدين)

فممّا يستحيل في حقه تعالى أن يكون في جهة من الجهات الست المخلوقة والتي تحيط بالمخلوق، ولا ينفكُّ عنها ممكن، إذ لا يُتصوَّر مخلوق من غير أن يكون في جهةٍ ما، و لم يقع ذكر الجهة في حقه تعالى في كتاب، ولا في سنة، ولا في لفـــظ صحابي أو تابعي، ولا في كلام أحد ممن تكلَّم في ذات اللّه تعالى وصفاته مـــن الفِرق سوى أقحاح المجسِّمة، كما ذكر ذلك العلامة الكوثري في المقالات.

وأمورُ العقائد عند المسلمين معتمدةٌ على الأدلة القطعية التي توافرت على أنه ـــ تبارك وتعالى ـــ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأنه ليس بجسم ولا في حيِّز، وأنه ليس متجزِّئاً، ولا مركَّباً، ولا محتاجاً لأحد، ولا مفتقراً إلى مكان، ولا زمان، ولا حالًّا فيهما، وقد جاء القرآن الكريم بهذا في محكماته الدالَّة عليه. كما في قوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد﴾ [فاطر: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّه أَحَد * اللَّه الصَّمَد * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد * وَلَمْ يَكُن لَّه كُفُوًا أَحَد﴾ [الإخلاص].

فقوله: ﴿أحد﴾ يدل على نفي الجسمية والشريك، لأن الجسم أقلُّه أن يكون مركَّباً من جوهرين، وهذا ينافي الوحدة، وكونه إلهاً يقتضي كونه غنيّاً عن كلِّ ما سواه، والصَّمد هو السيِّد الغنيُّ عن كلِّ ما سواه، المحتاج إليه كلُّ ما عداه، ولو كان جسماً أو مختصاً بحيِّز أو جهة لكان محتاجاً، فلا يكون صمداً على الإطلاق.

وغير هذه النصوص كثير في الكتاب والسنة، وكلُّ ما جاء من نصوص تخالف بظاهرها لتلك القطعيات المُحْكَمات فهو من المتشابهات التي لا يجوز اتباعها، كذلك يقتضي الواجب أن ينظر إلى القرآن الكريم كلِّه، فتبنى العقيدة من مجموع ما جاء فيه، وقد نزل يصدِّق بعضه بعضاً، وعليه فآيات التنزيه مثل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ قرائن تنزيه تمنع من أن تجري آيات أخرى على ظاهرها الموهم للتشبيه.

وإن سأل سائل فقال: ما الذي دعى إلى إطلاق هذه الألفاظ الموهمة مع الاستغناء عنها؟

فقد أجاب الإمام الغزالي رحمه اللّه تعالى: بأن الرسول صلى اللّه عليه وسلم مـــا جمع هذه الكلمات دفعة واحدة، بل جمعها المشبِّهة، ولجمعها من الإيهام والتلبيس على الأفهام ما ليس لآحادها متفرقة، إنها كلمات لهج بها جميـــع عمـــره، وفي أوقات متباعدة، وما ذكر كلمة منها إلا مع قرائن وإشارات يزول معها إيهـــام التشبيه، وأعظم القرائن في زوال الإيهام المعرفة السابقة بتقديس اللّه عن قبـــول الظواهر، والتقديس ذخيرة راسخة في النفس، مقارنة لكلِّ ما يُسمع، لينمحق معه الإيهام انمحاقاً. ومثاله: أن سمى (الكعبة) بيت اللّه، وإطلاقه يوهم الصـــبيان أن الكعبة وطنه ومقام له سبحانه، ولو سئل المشبِّهة القائلون بالجهة: لَمَ أطلق هـــذه التسمية الموهمة؟ لأجابوا: إنما هي موهمة لمن لا دراية له، وإنما الإضافة للتشريف، وقرينة اعتقادهم بالجهة مانعة من اعتماد ظاهر التسمية.

وعلى هذا، فإن كلَّ خطاب توجَّه به الرسول صلى اللّه عليه وسلم توجَّه به إلى قوم سبقوا إلى علم التقديس ونفي التشبيه، وأنه سبحانه منـــزَّه عـــن الجســـمية وعوارضها، وهذا قرينة قطعية مزيلة للإيهام[1].

وفي حديث عمران بن حصين رضي اللّه عنه أنه قال: يا رسول اللّه، أخبرنا عن أول هذا الأمر. فقال: (كان اللّه و لم يكن شيء غيره) رواه البخاري.

١ (انظر: إلجام العوام ص٢٣٩ـ٢٤٠).

وقد سئل علي رضي اللّه عنه: أين كان اللّه قبل خلق السماوات والأرض؟ فقال: (أين) سؤال عن المكان، وكان اللّه ولا مكان، وهو اليوم على ما كان.[٢]

وقال الإمام الطحاوي رحمه اللّه في العقيدة الطحاوية: (ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيه زلَّ ولم يصب التنزيه، فإنَّ ربنا جلَّ وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية، وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الستُّ كسائر المبتدعات).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه اللّه تعالى في شرحه عند الكلام على قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ...﴾: (وقال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب الردُّ على الجَهْميَّة والمُجَسِّمة في تعلُّقهما بهذا الظواهر، وقد تقرَّر أن اللّه تعالى ليس بجسم، فلا يحتاج إلى مكان ليستقرَّ فيه، فقد كان ولا مكان، وإنما أضاف المعارج إليه إضافة تشريف).

وقال أيضاً: (وَفِي قِصَّة مُوسَى وَالْخَضِر مِنْ الْفَوَائِد أَنَّ اللّه يَفْعَل فِي مُلْكه مَا يُرِيد، وَيَحْكُم فِي خَلْقه بِمَا يَشَاء مِمَّا يَنْفَع أَوْ يَضُرّ، فَلا مَدْخَل لِلْعَقْلِ فِي أَفْعَاله وَلا مُعَارَضَة لأَحْكَامِهِ، بَلْ يَجِب عَلَى الْخَلْق الرِّضَا وَالتَّسْلِيم، فَإِنَّ إِدْرَاك الْعُقُول لأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّة قَاصِر، فَلا يَتَوَجَّه عَلَى حُكْمه لِمَ وَلا كَيْفَ، كَمَا لا يَتَوَجَّه عَلَيْهِ فِي وُجُوده أَيْنَ وَحَيْثُ). (فتح الباري، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل...).

٢ (انظر روح البيان، إسماعيل حقي).

ويقول عند شرحه لقوله صلى اللّه عليه وسلم: (ينزل ربنا إلى السماء الدنيا): (استدلَّ به من أثبت الجهة وقال: هي جهة العلو، وأنكر ذلك الجمهور، لأنه يفضي إلى التحيُّز، تعالى اللّه عن ذلك).

ويقول الحافظ في الفتح أيضاً في كتاب الجهاد والسير، باب التكبير إذا علا شرفاً: (وَلا يَلْزَم مِنْ كَوْنِ جِهَتَي العُلُوّ وَالسُّفل مُحَال عَلَى اللّه أَنْ لا يُوصَف بِالعُلُوِّ، لأَنَّ وَصْفه بِالعُلُوِّ مِنْ جِهَةِ المَعْنَى، وَالْمُسْتَحِيلُ كَوْنُ ذَلِكَ مِنْ جِهَة الحِسِّ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي صِفَته العَالِي وَالعَلِيُّ وَالْمُتَعَالِي، وَلَمْ يَرِد ضِدُّ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْء عِلْمًا جَلَّ وَعَزَّ).

وقال أيضاً: (وَقَدْ تَمَسَّكَ بِظَوَاهِر أَحَادِيث البَاب مَنْ زَعَمَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحَانه وَتَعَالَى فِي جِهَة العُلُوّ، وَقَدْ ذَكَرْتُ مَعْنَى العُلُوّ فِي حَقّه جَلَّ وَعَلا فِي البَاب الَّذِي قَبْله).

وقد قال في الباب الذي قبله: (قَالَ الكَرْمَانِيُّ: قَوْله: "فِي السَّمَاء" ظَاهِره غَيْر مُرَاد، إِذ اللّه مُنَزَّهٌ عَن الحُلُول فِي المَكَان، لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ جِهَةُ العُلُوِّ أَشْرَفَ مِنْ غَيْرهَا أَضَافَهَا إِلَيْهِ إِشَارَةً إِلَى عُلُوِّ الذَّات وَالصِّفَات، وَبِنَحْوِ هَذَا أَجَابَ غَيْره عَن الأَلْفَاظ الوَارِدَة مِن الفَوْقِيَّة وَنَحْوهَا، قَالَ الرَّاغِب: "فَوْق" يُسْتَعْمَل فِي المَكَان وَالزَّمَان وَالجِسْم وَالعَدَد وَالمَنْزِلَة وَالقَهْر، فَالْأَوَّل: بِاعْتِبَارِ العُلُوّ، وَيُقَابِلهُ تَحْت، نَحْو: ﴿قُلْ هُوَ القَادِر عَلَى أَنْ يَبْعَث عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقكُمْ أَوْ مِنْ تَحْت أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وَالثَّانِي: بِاعْتِبَارِ الصُّعُود وَالِانْحِدَار، نَحْو: ﴿إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠].

وَالثَّالِث: فِي العَدَد نَحْو: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْق اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

الرَّابِع: فِي الكِبَر وَالصِّغَر، كَقَوْلِهِ: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

وَالخَامِس: يَقَع تَارَة بِاعْتِبَارِ الفَضِيلَة الدُّنْيَوِيَّة، نَحْو: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، أَو الأُخْرَوِيَّة نَحْو: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَة﴾ [البقرة: ٢١٢].

وَالسَّادِس: نَحْو قَوْله: ﴿وَهُوَ القَاهِر فَوْق عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] ـ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] اِنْتَهَى مُلَخَّصًا).

وقال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيم﴾ [البقرة: ٢٥٥]: (العلي: يراد به علو القدر والمنزلة، لا علوُّ المكان، لأن الله منزَّه عن التحيُّز).

وعن قوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء﴾ [الملك: ١٦]. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ... والمراد بها توقيره وتنزيهه جلَّ وعلا عن السُّفل والتَّحت، ووصفه بالعلوِّ والعظمة، لا بالأماكن والجهات والحدود؛ لأنها صفات الأجسام. وإنما تُرفع الأيدي بالدعاء إلى السماء لأن السماء مهبط الوحي، ومنزل القطر، ومحلُّ القدس، ومعدن المطهَّرين من الملائكة، وإليها ترفع أعمال العباد، وفوقها عرشه وجنته، كما جعل الله الكعبة قبلة للدعاء والصلاة، ولأنه خلق الأمكنة وهو غير

محتاج إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان، ولا مكان له ولا زمـــان، وهو الآن على ما عليه كان.

وقال العلامة الفخر الرازي رحمه اللّه في تفسيره: (المشبِّهة احتجُّوا بقوله تعـــالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللّه إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] في إثبات الجهة. والجواب: المراد الرفع إلى موضع لا يجرى فيه حكم غير اللّه تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَـــى اللّـــه تُرْجَـــعُ الأُمُور﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللّـــه وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وكانت الهجرة في ذلك الوقت إلى المدينة المنـــورة، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنّي ذَاهِبٌ إلى رَبّي﴾ [الصافات: ٩٩]).

إنّ وقفة تدبُّر أمام الحديث (كان اللّه و لم يكن شيء غيره) تري أنه لم يتجـــدَّد بخلقه للسماوات علوٌّ، ولا بخلقه للأرض نزول، ولا بخلقه للعرش استواء، وإنمـــا عن تجلِّي أسمائه وصفاته نشأت أعداد مخلوقاته... وقد قال اللّه تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ١ــ٢]، فوصفه بـــالأعلى حـــال اتصافه بالخلق دلَّ على أن علوَّه محقَّق قبل الخلق، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللّه حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّـــاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون﴾ [الزمر: ٦٧]، فوصف نفسه آخر الآيـــة بالعلوِّ والتنزيه، بعد ذكر قبضه الأرض وطيِّه للسماء.[٣]

وقال القرطبي: (... ثم إضافة العرش إلى اللّه تعالى كإضافة البيت، وليس البيـــت للسكنى، فكذلك العرش).

٣ (انظر: عون المريد بشرح جوهرة التوحيد في عقيدة أهل السنة والجماعة).

والخلاصة: أن من لم يصرف لفظَ المتشابه ــ آية كان أو حديثاً ــ عن ظـــاهره الموهم للتشبيه أو المحال، أو من فسَّره تفسيراً بعيداً عن الحجة والبرهان، قائمـــاً على الزيغ والبهتان، فقد ضلَّ وكان ممن يتَّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة. أما من يصرف المتشابه عن ظاهره بالحجة القاطعة ــ لا طلباً للفتنة، ولكن منعـــاً لهـــا، وتثبيتاً للناس على المعروف من دينهم، وردّاً لهم إلى مُحْكَمات الكتاب القاطعـــة ــ فأولئك هم هادون مهديُّون حقاً، وعلى ذلك درج سلف هذه الأمة الكريمة، وخَلَفُها، وأئمتها، وعلماؤها، ومن المزالق تفسيرُ النص على ظاهره وعلى حقيقته اللغوية، وإنكار المجاز في اللغة، ومن فعل ذلك وقع في نسبة الجهة والتحيُّز إلى اللّه تعالى.[٤]

وقد أوضح اللّه تعالى في كتابه الكريم بصريح العبارة ضـــرورةَ اتبـــاع المـــؤمن للنصوص المُحْكَمة في كتابه، وبناء عقيدته في اللّه بموجبها، ووضـــع النصـــوص المتشابهة من ورائها، من حيث فهمها والوقوف على المعنى المراد منها، وشـــدَّد النكير على من يتجاهل النصوص المحكمة النيرة القاطعة لِيَلْحَقَ العبارة المتشـــابهة الغامضة ويفسِّرها كما يشاء، وذلك في قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّـــا الَّـــذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَـــهُ إِلاَّ اللّه وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُـــواْ الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].[٥]

٤ (انظر: عون المريد).
٥ (انظر: كبرى اليقينيات الكونية).

اللهم اهدنا وسددنا برحمتك ياأرحم الراحمين

اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك

اللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك يا ذا الجلال والإكرام

{ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ }

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل

وصلى اللّه على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد للّه رب العالمين.

**

محمد عبدالله رجو